﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الكون كلّه مُسبِّحٌ لله، والبشر لا يفقهون تسبيحهم

بعد أن تكلّمت الآيات السّابقة عن حال الّذين أشركوا بربّهم، وكيف أنّهم ادَّعوا البنوّة للّه سبحانه - تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا - ثم ردَّت عليهم الآيات ببيان عِظَم جرمهم، وبتنزيه اللّه تعالى تنزيهًا مطلقًا عن كلّ فرية لاكتها ألسنتهم، في هذا الشّأن، بعد ذلك أخبر اللّه تعالى أنّه غنيّ عنهم وعن عبادتهم؛ وأنّه سبحانه يسبّح له الكون كلّه، فقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُسَبِّحُ﴾: أصلُ (سبح) يدلُّ على جِنْسٍ مِنَ العِبادَةِ، وأَصْلُه مِن السَّبْحِ، وهو: البُعْدُ، والتَّسْبيحُ: التَّبْعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحْتُ في الأَرْضِ، أي: أَبْعَدْتُ فيها[1]، والتَّسْبيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرِئَةُ، يُقال: سَبَّحْتُ اللّهَ، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسْبيحًا وسُبْحانًا، أيْ: نَزَّهْتُهُ وبَرَّأْتُهُ مِن كُلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[2]، ويأْتي بِمعنى قَوْلِ سُبْحانَ اللّهِ، فيُقال: سَبَّحَ الرَّجُلُ، أي: قال: سُبْحانَ اللّهِ، ويُطْلَقُ التَّسْبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بِالعِبادَةِ[3]، والمرادُ بالتَّسبيحِ في الآيةِ: قَولٌ أَو مجموعُ قَولٍ مع عَمَلٍ يدُلُّ على تَعظيمِ اللّه تعالى وتَنزيهِهِ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبّح)، والخطّابيّ، غريب الحديث، ص: 685.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).

(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سبح)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 96.

2) ﴿تَفْقَهُونَ﴾: (فقه) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على إِدْراكِ الشَّيْءِ والعِلْمِ بِهِ[1]، وأَصْله الفَتْحُ والشَقُّ، ومنه سُمّيَ العِلْمُ فِقْهًا؛ لأَنَّهُ يَحْمِلُ معنى التَّعَمُّقِ في الأَمْرِ والتَّبَصُّرِ فيه كَمَن يَشُقُّ الشَّيْءَ ليَكْتَشِفَ ما فيه[2]، ويأْتي الفِقْهُ بِمعنى الفَهْمِ[3]، يُقال: فَقِهْتُ الحَديثَ، أَيْ: فَهِمْتُهُ، والفِقْهُ أيضًا: الإِدْراكُ والعِلْمُ بِالشَّيْءِ، يُقالُ: فَقُهَ الرَّجُلُ، فَقاهَةً وفِقْهًا، وفَقَّهَهُ اللّهُ وتَفَقَّهَ، أَيْ: تَعَلَّمَ[4]، ثمَّ خُصَّ بِهِ عِلْمُ الدّينِ لِشَرَفِهِ على جَميعِ العُلومِ[5]، والمقصودُ بالفِقْهِ في الآية: إِدْراكُ الأَشْياءِ الخَفيَّةِ[6].

3) ﴿حَلِيمًا﴾: أصلُ الحِلْمِ – بِكَسْرِ الحاءِ –: التَّأَنّي والصَّبْرُ، يُقال: حَلُمَ، يَحْلُمُ، حِلْمًا، فهو حَليمٌ، أَيْ: تَأَنَّى، وصَبَرَ، ولم يَتَعَجَّلْ، ويأْتي الحِلْمُ بِمعنى السُّكونِ وضَبْطِ النَّفْسِ[7]، فيُقال: تَحَلَّمَ فُلانٌ، أي: تَكَلَّفَ ضَبْطَ النَّفْسِ، والحَليم: الَّذي لا يَسْتَخِفُّهُ عِصْيان العُصاة، ولا يَستفِزُّه الغَضَبُ عليهم، ولكنَّهُ جَعَلَ لكلِّ شيءٍ مِقْدارًا[8]، والحليمُ في صفة اللّه تعالى معناه الصَّبور[9]، ومِن مَعانيه أيضًا: العَقْلُ، والعِلْمُ[10]، وضِدُّه: العَجَلَةُ، والجَهْلُ، والسَّفَهُ، وجَمْعُ حِلْم: أَحْلامٌ وحُلومٌ[11]، والمرادُ بالحليم في الآية: المَوصوفُ بالحِلْمِ، وهي صِفَةٌ تَقْتَضي الصَّفْحَ والرَّحمةَ بالمَخْلوقِ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تُسَبِّحُ للّه السماوات السَّبعُ والأرضُ، ومَن فيهنَّ مِنَ المَلائِكةِ والإنسِ والجِنِّ وجميعِ المَخلوقاتِ، فتُنَزِّهُه عمّا لا يليقُ به، وما مِن شَيءٍ من المَخلوقاتِ إلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللّه تعالى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فقه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 133.
(7) الرّاغب، المفردات: (حلم).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (حلم).
(9) الخليل، العين، وتهذيب اللّغة: (حلم).
(10) ابن سيده، المخصّص: 1/ 251، والزّبيديّ، تاج العروس: (حلم).
(11) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والفيروزباديّ، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (حلم).

تسبيح الكون لله تعالى إمَّا بالأقوال، وإمَّا بدلالةِ الأحوال

فيُنَزِّهُه تنزيهًا مَقرونًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ مع محَبَّتِه وتَعظيمِه - ﷻ - ولكن لا تَعلَمونَ - أيُّها النّاسُ - تَسبيحَ المَخلوقاتِ؛ لأنَّها على غيرِ لُغَتِكم، إنَّ اللّهَ كان حَليمًا، فلا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ مَن يكفُرُ به ويَعصيه، غفورًا لِمَن تابَ مِن عِبادِه، فيَستُرُ ذُنوبَهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله ﴿تُسَبِّحُ﴾:

إبراز غنى الله سبحانه عن تنزيه مَنْ لا يؤمن به

في هذا الاستئناف "بيان عظمة هذا التّنزيه مقرونًا بالوصف بالكمال"[2] والغرض إبراز أنّ اللّه تعالى غنيّ عن تسبيح مَنْ لا يؤمن به؛ لأنّ الكون كلّه يسبّح له، محبةً وتعلقًا، وحتّى لو لم يسبّح له أحد، فإنّه سبحانه هو الغنيّ الحميد، والكون كلّه مفتقر إليه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تُسَبِّحُ﴾:

الكون كلّه مُسبّح لله باستمرار، وبلا انقطاع

دلّ التّعبير بالمضارع ﴿تُسَبِّحُ﴾ على دوام هذا التّسبيح وتكرّره وتجدّده وعدم توقّفه، إذ إنّ التّسبيح للّه ﷻ لا ينقطع لحظة، بل يستمرّ كأثَرٍ لتعدّد المسبِّحين وتنوّعهم، سواء في الأرض أو في الملأ الأعلى.

دلالة ﴿تُسَبِّحُ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

دلالة المقال بالتّسبيح، ودلالة الحال بالتّنزيه

هذه من المسائل والمواضع الّتي خاض فيها العلماء وأسهبوا، كذات الخلاف في معنى السّجود في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: 15] وفي أمثاله، فيتحصَّل من ذلك رأيان:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 605، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 312، 313، والخازن، لباب التّأويل: 3/ 131، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 79، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 459.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 423.

الأوّل: أنّ التّعبير حقيقيّ، والتّسبيح هنا يدلّ على ما يعنيه لفظ التّسبيح، لكنّه تسبيح خاصّ بكلّ جنس، وكلّ نوع، بما يناسبه؛ لقوله تعالى في نفس الآية: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، فإنّه يدلّ على أنّ للسّموات والأرض وما فيهما تسبيحًا حقيقيًّا يناسبها، ولا يعني عدم فقهنا له، عدم وجود حقيقته، فهو إذن "تسبيحٌ حقيقيّ، ولكنّا لا ندركه لحكمة، ولا يستغرب هذا، وقد "سبّح الحصى" في كفّ نبيّنا عليه أفضل الصّلاة والسّلام، "وسلّمت عليه الحجارة""[1]، فإذا كانت نسبة التّسبيح للسّماوات والأرض، باعتبار من فيهن من (ملك وإنس وجنّ)، أي: من الأجناس العاقلة، يمكن تفهّم كون النّطق بالتّسبيح من قبله على الحقيقة، فإنّ "ما لا حياة فيه ولا نمو - قد - يحدث الله له نطقًا، وهذا هو ظاهر اللّفظ"[2]، وهذا القول أرجح وأظهر، لدلالة قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، عليه دلالة واضحة.

والثّاني: حمل التّسبيح على المجاز، فقيل: في قوله ﴿تُسَبِّحُ﴾ (استعارة تصريحيّة تبعيّة)، حيث استعير التّسبيح للتّنزيه[3]، واشتقّ منه ﴿تُسَبِّحُ﴾ بمعنى (تنزّه) أي: تنزهه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾، وقيل: بل (استعارة تصريحية تمثيلية) حيث شبه دلالتها على وجود الواجب لذاته (الله تعالى) منزهًا عن سمات النقص وعن لوازم الإمكان والحدوث بالتّنزيه عن ذلك بالمقال (التسبيح)[4]، ويجوز كذلك أن تكون (استعارة مكنية) بأن يكون شبَّه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾ بإنسان يسبّح، ثم حذف المشبّه به ودلّ عليه بشيء من لوازمه، وهو التّسبيح، وأبقى المشبّه وهو ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾، ولو نظرنا إلى التّركيب باعتبار الإسناد، وهو إسناد التّسبيح إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾، فهو (مجاز عقلي).

إذن لو أُريد حملُه علَى المجاز، فهو محتمل لكل هذه الوجوه، والأرجح هو حملُه على الحقيقة لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، ومع هذا، فاللّفظ يتّسع للجمع بين

(1) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 6/ 35، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 515.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 54.
(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 515.
(4) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 515.

الدّلالتين دلالة المقال بالتّسبيح، ودلالة الحال بالتّنزيه، ولعلّه أحد أسرار التّعبير، بقوله: ﴿تَفْقَهُونَ﴾ دون (تسمعون)[1].

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهُ﴾ في السّياق:

حرف المعنى ذو أثر في الدّلالة

اللّام قد تكون لام التّعدية، إذا كان الفعل ﴿تُسَبِّحُ﴾ متضمّنًا معنى (تشهد)، ويجوز أن تكون اللّام المسماة (لام التّبيين) كالتي في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: 1] وفي قولهم: حمدت اللّه لك[2].

سرّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُ﴾:

التّقديم للاختصاص، وهو من بليغ البيان

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور على الفاعل ﴿لَهُ﴾، هو إفادة الاختصاص، فله وحدَه تسبِّح السماوات والأرض وما فيهن من كائنات وجمادات.

دلالة التّعبير بالفاعل مُعرَّفا باللّام جمعًا:

دلالة التّعريف على استغراق الجنس

قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾، التّعريف في الفاعل بالألف واللّام، للدّلالة على استغراق الجنس، فكلّ السماوات وكلّ الأرضين وما فيهن تسبّح للّه تعالى.

سرّ تقييد الفاعل بالصّفة ﴿ٱلسَّبْعُ﴾:

التّقييد بالسّبع تأكيدٌ لدلالة (أل) على الاستغراق

قيد السماوات بالصّفة ﴿ٱلسَّبْعُ﴾ فيما يظهر، لتأكيد ما دلت عليه

(1) هذا الاتّساع عند الزّمخشريّ يتحقق فقط بحمل اللفظ على المجاز، فقد قال: "فإن قلت: ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ يسبّحون على الحقيقة وهم الملائكة والثّقلان، وقد عطفوا على السماوات والأرض، فما وجهه؟ قلت: التسبيح المجازى حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه، وإلّا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز"، ينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/ 670.

على أنّ هنالك من الأصوليين مَن يرى أنّه لا مانع من حمل اللّفظ على معنييه الحقيقيّ والمجازيّ في آن، وهو رأي الشافعي، كما ذكر أبو حيان، حيث قال: "وأمّا الشافعي فجرى على منوال واحد، فجوَّز استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وحمله عند الإطلاق عليهما"، يُنظر: أبو حيان، البحر المحيط: 2/ 400. وهنالك تفصيل وتحليل في المسألة، ذكره السعد التفتازاني في التلويح على التنقيح، فقد تناول المسألة وبدأ كلامه عنها بقوله: "لا نزاع في جواز استعمال اللفظ في معنى مجازي يكون المعنى الحقيقي من أفراده كاستعمال الدابة عرفًا فيما يدب على الأرض، ووضع القدم في الدخول، ولا في امتناع استعماله في المعنى الحقيقيّ والمجازيّ، بحيث يكون اللّفظ بحسب هذا الاستعمال حقيقة ومجازًا"، يُنظر: السّعد التّفتازاني، التّلويح على التّنقيح: 1/ 164.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 114.

اللام من الاستغراق، فالسماوات فيما نصّت عليه كثير من آيات القرآن، وكثير من الأحاديث هي سبع، و"لا خلاف أنّ السماوات سبع بنصّ القرآن والحديث ..."[1] ومن أدلّة قصديّة العدد (سبع) كذلك، هو أنّها وردت على جمع السّلامة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ لقلّة عددها[2]، ومن ثمّ، فالتّعبير بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ﴾ هو في قوّة (السّماوات كلّها) دلاليًّا.

دلالة العطف في لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾:

العطف بالواو غرضه الجمع بين السماوات والأرض وما فيهما، في الاشتغال بتسبيح ذي الجلال والإكرام والانشغال به.

السماوات والأرض بمَن فيهما مشغول بتسبيح الله

غرض الطباق في: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾:

المقابلة بين المتضادين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ - ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾ كظرفين لتسبيح الله، يؤكد للمُعرِض عن تسبيحه سبحانه كم هو وحيد ضئيل جدًا، في مواجهة المسبِّحين، فماذا يمثل هذا المشرك المعرض عن تسبيحه سبحانه في مقابل السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما؟

كشف حجم المشرك أمام نفسه، في تقاعسه عن الانضمام للكون المسبّح

دلالة إفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾ في مقابل جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

(أل) في الأرض للجنس، فيصدُق بالجمع من حيث الدلالة، ويدلُّ على ما دلَّ عليه لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ المجموع، وأما عن إفراده، فهذه عادة قرآنية، فلم يرد أبدًا في الكتاب العزيز لفظ الأرض مجموعًا على (أرضين) لأنها ترد غالبًا مرادًا بها الجهة فهي "بمنزلة السّفل والتّحت ... فلا معنى لجمعها كما لا يجمع الفوق والتحت والعلو والسفل"[3] ولذا لما استُدْعيَ في تركيبٍ أن يُجمَع لفظ الأرض في مقابلة لفظ السماء المجموع، لكونه أراد الذّات والعدد، وليس الجهة، انظر ماذا فعل القرآن وبماذا عبَّر؟ وذلكم المعنيّ هو

(أل) في الأرض للجنس، والمراد تسبيح جميع الأرضين

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 295.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12] "فإنّ الأرض لا نسبة إليها إلى السماوات وسعتها، بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء فهي وإن تعددت كالواحد القليل فاختير لها اسم الجنس"[1] ومن أسباب إفراده كذلك في القرآن استثقال جمعه (أرضون)[2].

دلالة العطف في ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾:

الجمع في التّسبيح بين المكان والمكين

قوله ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وفائدة هذا العطف، شمول الخبر للمكان وهو السماوات والأرض، والمكين، وهم سكان كل منهما، من حيث قيام جميعهم بالتّسبيح لله.

غرض التّعبير باسم الموصول (مَنْ):

العقلاء في الكون يسبّحون ربّهم، وغير العقلاء مدرجون معهم

عبَّر بالاسم الموصول (مَن) الدالّ على العاقل، ليعلم أنّ العقلاء من سكان السماوات والأرض، كالملائكة في السّماء، والإنس والجنّ في الأرض، كلهم يسبحون لله، حتى من لم يؤمن بالله منهم، فهو يسبّحه بانقياده له، فلئن أحجبوا عن التّسبيح بلسان المقال، فإنّه لا سلطان لهم على انقياد الحال، وإذا خصّ العقلاء بالذّكر من خلال (من) الموصولة؛ فإنّ غير العقلاء أدخل في باب التسبيح منهم.

سرّ التّعبير بالجارّ والمجرور ﴿فِيهِنَّۚ﴾:

ما تحتويه السماوات والأرض مشغول بتسبيح الله

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿فِيهِنَّۚ﴾، الدّلالة على أنّ جميع من تحويهم السماوات والأرض من العقلاء، يسبّحون ربّهم، كلّ بطريقته، و"أعاد على السّماوات والأرض ضمير من يعقل، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح"[3].

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 355.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 459.

دلالة الإدماج في ضمير جمع العقلاء ﴿فِيهِنَّۚ﴾:

إدمـاج العقلاء مع غير العقلاء ذو أثـر في بيان المراد من السّياق

الضّمير، في قوله ﴿فِيهِنَّۚ﴾ أدمج فيه كلّ العقلاء من سكّان السماوات والأرض، وهم الملائكة والإنس والجنّ، وفيه دلالة على اتّحاد العمل.

دلالة العطف في ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾:

المعطوف مُؤكّدٌ للمعطوف عليه

فجملة: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، معطوفة على جملة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ﴾، للإخبار بالأمرين معًا، على أنه لا يخفى كون مضمون الثانية المعطوفة يحمل تأكيدًا لما في سابقتها من عموم، فيكون من باب عطف التأكيد على المؤكَّد.

غرض التّعبير بأسلوب القصر:

كلُّ ما في الكون يقصر تسبيحه على الله تعالى وحده

الغرض من التعبير بأسلوب القصر في: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ قصر تسبيح جميع الأشياء على الله تعالى وحده، دون سواه.

سر إيثار النّفي والاستثناء طريقًا للقصر:

أسلوبُ القصر من أعظم مؤكّدات المعنى

في إيثار النّفي والاستثناء طريقًا للقصر في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ دلالة على أنّ المراد بالقصر هنا تأكيد المعنى.

سرُّ التّعبير بأسلوب الاستغراق في ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾:

بيان الدّلالة على العموم والشّمول

في التّعبير بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ بتنكير ﴿شَيۡءٍ﴾، والإتيان بها في سياق النّفي، دلالة على استغراق الأفراد، فكلّ فردٍ في الوجود، عاقل وغيرِ عاقل يسبح بحمده سبحانه، حالًا وقالًا، فإن امتنع بعض المكلفين عن التسبيح بالقال لسوء معتقده، فإن حاله وجميع أعضائه ومكوِّناته منقادة لله تعالى، وتسبح بحمد ربها، بدليل أن هذه الأعضاء ستأتي يوم القيامة لتتبرَّأ من ضلال صاحبها وتشهد عليه، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ

عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: 20 - 21].

سرُّ التّعبير بالمضارع في ﴿يُسَبِّحُ﴾:

التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُسَبِّحُ﴾ دالّ على كون هذا التّسبيح من جميع الكائنات مستمرّ ومتكرر، وأنّها تجدد تسبيحه سبحانه، في كلّ حال يقتضيه، وإن فترت فسريعًا ما تنشط لاستئنافه.

التعبير بالمضارع دالٌّ على الاستمرار والتّكرار

سرّ تقييد التّسبيح بالجارّ والمجرور ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾:

قيَّد التّسبيح بكونه ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾، لملاءمته لسياق العموم والشمول الذي مضت الآية في سلكه، فالتّسبيح بحمد الله يستغرق كلّ الأحوال، في الشّدة والرخاء، في العسر واليسر، في الضراء والسراء، فلا يقتصر التسبيح بحمده على حال النعماء دون حال الضراء، هذه هي ضرورة الإيمان، وطبيعة الحمد لمن يستحق الحمد كله فـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: 2]، كما أن التسبيح بالحمد متجه إلى كونه تعالى أهلًا لأن يحمد، أي لذاته وليس فقط لعطائه، وفيه دلالة على فضل الذكر بـ (سبحان الله وبحمده) وقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسولَ اللّه ﷺ قالَ: "مَنْ قالَ: سُبْحانَ اللّه وَبِحَمْدِهِ، في يَوْم مِائَةَ مَرَّة، حُطَّتْ خَطاياهُ، وَإِنْ كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ"، وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ أيضًا، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: "كَلِمَتانِ خَفيفَتانِ عَلَى اللِّسانِ، ثَقيلَتانِ في الميزانِ، حَبيبَتانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحانَ اللّه العَظيم، سُبْحانَ اللّه وَبِحَمْدِهِ"[1].

الله ﷻ أهل للحمد مُستحقٌّ للثناء

تنوّع القراءات بالياء والتّاء في ﴿تُسَبِّحُ﴾:

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ﴾: قرأ أبو عمروٍ وحمزة والكسائي وحفصٌ ورويس بخلفه بالتاء ﴿تُسَبِّحُ﴾، وقرأ الباقون بالياء مِنْ تحت[2]، وهما

توجيه قراءتي (تُسبِّح - يُسبِّح) إثراء للمعنى مفيد

(1) الحديثان أخرجهما البخاري في صحيحه، كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح، حديث رقم: (6405)، (6406).

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 307.

واضحتان؛ لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ، ولوجودِ الفصلِ أيضًا[1]، وأضاف ابن خالويه أن الحجّة لمن قرأه بالياء ﴿يُسَبِّحُ﴾: أنه جمع قليل، والعرب تذكّره[2]، ومراده بالجمع القليل هو جمع السماوات حيث إنه جمع جمع سلامة للدلالة على قلة عددها فهي سبع.

دلالة العطف في ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾:

وذلك أنّ هذه الجملة ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، تحتمل أن تكون واو الحال، أي: والحال أنّكم ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أو أنّها عاطفة، ويكون سبب العطف وما فيها من استدراك بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ دفع توهّم أنّ كلّ الكائنات تسبّح كما يسبّح الإنسان بالنّطق بـ (سبحان الله)، كما ينطق، فجاءت هذه الجملة، لتدفع ذاك التوهم، فيكون فيها الجواب لمن عساه أن يقول: كيف تسبح كما نسبح، ونحن لا نسمع تسبيحها؟

الواو للحال أو أنّها عاطفة لدفع التّوهّم

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَفْقَهُونَ﴾:

دل التّعبير بالمضارع المنفيّ بـ ﴿لَّا﴾ على استمرار هذه الحالة – وهي عدم فقه تسبيح هذه المخلوقات – وتجدّدها حالًا واستقبالًا، وفيه "إشارة إلى ما عليه الأكثر من الغفلة، وعدم العمل بمقتضاه"[3].

عدم فقه تسبيح المخلوقات مستمرٌّ متجدّد

سرّ التّعبير بالمفعول به مضافًا للضّمير:

إضافة المفعول به إلى الضّمير ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾، هي إضافة لأدنى ملابسة، ومن دلالاتها هنا مدح هذه الكائنات بقيامها بتسبيح ربّها، والتّعريض بالنّاكصين عن تسبيح ربّهم.

الإضافة فيها مدح للمسبّحين، وتعريض بالمستنكفين

دلالة جملة الاستئناف:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ استئناف يظهر مدى حلمه

(1) السمين، الدر المصون: 7/ 362، والشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 35، والفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 107، وابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 218.

(2) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 218.

(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 35.

سبحانه بعدم تعجيل العقوبة على مستحقّيها، لمنحهم الفرصة للرّجوع والانتفاع بذاك الإمهال، وفيها تعريض بأنّ مقالتهم تقتضي تعجيل العقاب لهم في الدّنيا، لولا أنّ الله عاملهم بالحلم والإمهال، وفي ذلك أيضًا حثّ وحضّ على الإقلاع عن مقالتهم ليغفر الله لهم[1].

بـيـان حـلـمـه سـبـحـانـه عـلـى العصاة، وعدم مـعـاجـلـتـهـم بالعقوبة

سرّ الختم بالجملة الاسميّة المؤكّدة:

تأكيد مضمون الجملة، للدّلالة عـلـى حـلـم الله وغفرانه

في الجملة عدد من المؤكّدات الدّالة على أنّ الله تعالى حليم بعباده غير متشوّف إلى عقوبتهم، ومن أمارات ذلك أنّه لا يعاجلهم بالعقوبة بعد معصيتهم، بل يمهلهم ويعظهم ويمدّ لهم الحبل لعلّهم يرجعون، ومن هذه المؤكّدات: استهلال الجملة بـ (إنَّ) التّوكيديّة، واسميّة الجملة مبتدءًا وخبرًا، وفيه الدّلالة على ثبات الوصف وتحقّقه، وإقحام ﴿كَانَ﴾ المجرّدة عن الزّمان، في الجملة، واقتران وصفي (الحليم، والغفور) وهما من الأسماء الحسنى، التي تبرز الجمال الإلهي في معاملة الخلق، ولو كانوا من العصاة، بإمهالهم وترغيبهم في التوبة، ليتفادوا العقوبة.

سرّ التّعبير بالكون في ﴿كَانَ﴾:

دلالة (كان) على تحقّق الوصفيْن المـذكـوريْـن لله تعالى

إقحام ﴿كَانَ﴾ في الجملة يدل على أن صفتي (الحلم والغفران لله تعالى) صفتان مُحقَّقتان له سبحانه[2].

وغنيٌّ عن البيان أن ﴿كَانَ﴾ في مثل هذا التعبير مُجرَّدة عن الزمان؛ أيْ: ليست دالة على الزمان الماضي كما هو أصل معناها؛ لأنَّ الله تعالى متّصف بهاتين الصّفيتين اتصافًا ثابتًا لا يتغيّر بزمان ولا بغيره.

نكتة الاقتران بين الاسميْن الجليليْن ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾:

في ختم الآية الكريمة وتذييلها بهذا الاسمين الجليلين ﴿حَلِيمًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 115.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 115.

﴿غَفُورًا﴾ ما يفيد أنه سبحانه لا يعاجل المقصِّرين بالعقوبة مع كفرهم وقصورهم في النظر، ويدل أيضًا على أنهم لو تابوا لغفر لهم ما صدر منهم؛ فكأنه قيل: ما أحلم الله وأكرمه! وهذا في غاية البلاغة والانتظام[1]، وفي هذا التذييل أيضًا من الدلالات إبراز الفرق بين البشر وخالقهم، وذلك أنه "لما كان الغالب على أحوال البشر أن حليمهم إذا غضب لا يغفر، وإن عفا كان عفوه مكدَّرًا، قال تعالى: ﴿غَفُورًا﴾ مشيرًا بصيغة المبالغة إلى أنه على غير ذلك ترغيبًا في التوبة[2].

تذييل مضمونه عدم معاجلة المذنب بالعقوبة، والغفران له عند التّوبة

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفِقْهُ والعِلْمُ:

فالفِقْه: هوَ العلم بالشَّيْء والفهم لَهُ والفطنة وَ(فَقه)، كعلِم، أي: فَقِه، معناه: فهم، وكمَنَع، أي: فَقَه، معناه: سبق غَيره بالفهم، وككرُم، أي: فَقُه، معناه: صار الفِقْه لَهُ سجية.

الفقه أعلى مرتبة من العلم، فكلّ فقه علم؛ وليس كلّ علم فقهًا

والفِقْه في العرف: الوُقوف على المَعْنى الخَفي يتَعَلَّق بِهِ الحكم، وَإِلَيْهِ يُشير قَوْلهم: هوَ التَّوَصُّل إِلَى علم غائِب بِعلم شاهد أَعني أَنه تعقل وعثور يعقب الإحساس والشعور[3].

والعِلْمُ: إدراك الشّيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشّيء، والثّاني: الحكم على الشّيء بوجود شيء، هو موجود له، أو نفي شيء هو منفيّ عنه[4].

وعلى ذلك فالتّعبير بالفقه، هو تعبير عن حالة أدق من العلم فإذا كان الشّيء دقيقًا سمي فقهًا، فهو على ذلك علم وزيادة.

(1) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 6/ 35.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 428.
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 690.
(4) الرّاغب، المفردات: (علم).

وإلى هذا المعيار لجأ السّيوطي في الموازنة بين اللّفظين لورودهما متعاقبين في فاصلتين في سورة الأنعام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 97 - 98] فقال: ختم الأولى بقوله: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: 97] والثّانية بقوله: ﴿لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 98] ... وذلك؛ لأنّ حساب النّجوم والاهتداء بها، يختصّ بالعلماء بذلك، فناسب ختمه بـ ﴿يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: 97] وإنشاء الخلائق من نفس واحدة، ونقلهم من صلب إلى رحم، ثمّ إلى الدنيا، ثمّ إلى حياة وموت، والنّظر في ذلك والفكر فيه أدق، فناسب ختمه بـ ﴿يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 98]؛ لأن الفقه فهم الأشياء الدقيقة[1]، وبذلك نعرف أن التّعبير بـ ﴿تَفۡقَهُونَ﴾ في الآية التي معنا ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، أدلّ من التّعبير بـ (تعلمون)؛ لأنّنا قد علمنا وصدَّقنا بما علمنا من خلال الخبر الصّادق أنّ هذه الكائنات تسبّح لله، لكنّنا لا ندرك كنه هذا التّسبيح، فهو أوسع من علمنا، لأنّه خفي علينا، وإدراك الخفيّ فقه لا علم، ونفيه هو نفي للفقه لا للعلم.

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 3/ 349.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»